من أدب الهند

الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى

الهنـــدى

ترجم صديق الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندى العلامة الصوفى الكبير الأمير خسرو فى (الرسالة)، فأثارت الترجمة فى نفسى ذكرى ذلك العبقرى العظيم أيام كنت أطالع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته فى الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سمتهما، فكنت أستعين بمسامرات الاخوان ومحادثات الأقران. واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لى، وإن كانت لذلك أسباب أخرى، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. أحب أن أبلغ اليوم بقدر الامكان رسالته إلى «الرسالة»، إذ حياة العظماء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال فى كل مكان وزمان، وأنثر أزهار الحديث عنه على مرقده الخالد الحى وهو ذكراه فى القلوب

* * *

ولد الأمير خسرو فى الهند فى مدينة بطيالى بقرب دهلى فى سنة ٦٥٢ هجرية [1] من سلالة عريقة فى الشرف من الأتراك المهاجرين الى الهند من مظالم جنكيزخان فى وسط آسيا. فكانت قبيلته السماة «لاتشين» تسكن فى بلدة تكش فى ولاية ماوراء النهر، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيزخان؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة. وكان فى الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المماليك، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم. وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن. وقد روى أمير خوند فى كتابه سير الأولياء عن والده أن فى جوار والدى الأمير خسرو كان يسكن صوفى كبير مسمى «أمير لا تشين» فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً فى القماش اليه، فقال الصوفى: «أنتم جئتم إلى عمن سيسبق خاقانى (الشاعر الفارسى الشهير) بدرجتين؟

مات أبو خسرو وهو فى السابعة من سنه، ولكن أسرته كانت مثرية فلم تهمل تربيته وتعليمه، فتربى خسرو فى دهلى، وكانت دهلى إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن، فكانت مركز العلوم والفنون، ومحور الحضارة والمدنية، ومأوى الفضلاء والعلماء، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية فى الأهمية لبغداد. فى هذا الوسط الراقى تربى خسرو فنبغ فى العلوم والفنون المختلفة، غير أن ميله الغريزى كان إلى ثلاثة: الشعر والموسيقى والتصوف، فأجادها فى أقل وقت، وبلغ فيها درجة الأمامة

بدأ خسرو يقول الشعر وهو فى صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفا بها من الجميع فى نهاية العقد الثانى. ولكن تقاليد ذلك الزمن والظروف العائلية كانت تقتضى أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه، فلم يكن له بد من أن يتصل بامراء [1] وسلاطين ذلك الزمن من مقدرى مهنته. فاتصل خسرو فى سنة ٦٧٦ أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم «ملك شجو» ، وملك شجو كان ابن أخت الامبراطور غياث الدين بلبن [2] و «أمير حاجب» (أى رئيس الحجاب) فى بلاطه. ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن، واسع الصدر كريماً. فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برنى، وهو من معاصرى خسرو وأصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى: «أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان فى سعة الصدر والكرم، وفى اطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم، حتى أن هلاكو خان الشهير أرسل اليه خنجراً

(١) استنبطنا تاريخ ولادته هذا من مصنفه «قران السعدين» الذى أتمه فى سنة ٦٨٨ هجرية وقد ذكر فيه أنه كان سنه حينئذ ٣٦ سنة، وأما ما كتبه العلامة المؤرخ المرحوم شبلى نعمانى الهندى فى كتابه «شعر العجم» معتمداً على روايات أخرى أنه ولد فى سنة ٦٠٥ هجرية فهو غير صحيح ومما لا يعتمد عليه

(١) كان فى القرون الوسطى فى الهند «خان» و «ملك» و «أمير» ألقاب رسمية لتبيين منزلة الموظف. فيلقب بـ«خان» الموظف الذى يقدر على حشد مائة عسكرى، وبـ«ملك» من يقدر على ألف، وبـ«أمير» من يقدر على عشرة آلاف. هذا كان فى بادئ الأمر، ولكن بعد مرور الزمن زالت تلك الاعتبارات، فأصبحت تطلق كلمة «أمير» على جميع موظفى الحكومة مهما تكن منزلتهم عالية

(٢) ملك من ملوك المماليك حكم على الهند من سنة ٦٦٤ هجرية إلى سنة ٦٨٦ هجرية

وعرض عليه أن يكون حاكماً على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك . ولكن خاله الامبراطور بلبن استنكر حريته الخارجة عن عن العادة[1] . ويذكر المؤرخ برنى فى محل آخر أن شجوّ كان أغزرهم جوداً وأعظمهم منحاً ، وزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المعطف الذى ستر جسمه . ومن أمثال جوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيل فى اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكه[2] على المغنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه . ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق . فقد قال قصائد غير واحدة فى مدح شجوّ ، ونحن ننقل إلى العربية بعض أبيات من قصيدته البديعة التى تعد مثالاً للغلو الشرقى فى المديح قال :

« إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل ، والهلال الأصفر كالمريوق[3] بقرنيه المقوسين كاد أن يغيب عن النظر ، فسألت الصبح : أين شمسك الموعود بها ؟ فأرانى وجه شجوّ المشرق بنوره البازغ ؛ ثم توجهت الى السماء المرصعة بالنجوم ، فسألتها : من يساعد نجومك فى سيرها ؟ فضحكت من سؤالى العبث ، وأرتنى أيدى الملك التى جعلتها مستقيمة »

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجوّ أكثر من سنتين ، فان قلب شجوّ تغير على الشاعر خسرو لحادثة حدثت ، وهى أن نصير الدين بغراخان النجل الثانى للأمبراطور غياث الدين بلبن كان مرة على مأدبة شجو والشاعر كذلك ، فلما سمع منه شعره استحسنه وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية ، فغضب شجو على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير ؛ وعبثاً حاول خسرو بعد ذلك إرضاءه

اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بغراخان حاكم سمانا لمدة قصيرة ، ثم انقطع عنه واتصل بعده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد ، النجل الأكبر للأمبراطور غياث الدين بلبن ؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمى البنجاب والسند ، وعندما حضر العاصمة دهلى مع ربع الاقليمين فى سنة ٧٨٢ هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذه الى البنجاب . بقى خسرو مع خان شهيد خمس سنين ، وكان دائماً موضع العطف الخاص والاجلال والتكريم ، لأن خان شهيد كان أمثل الأمراء على حسب تقاليد الزمن فى الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب ، ومن أكبر مقدرى الفنون والشعر ، فقد وجد فى بياضه[1] ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع ، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء ، وكان يبذل قصارى جهده فى جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء فى مجلسه ، فقد دعا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسى الشهير مرتين ، وأرسل اليه نفقات السفر ووعد ببناء صومعة له فى بلدة ملتان والانعام الكثير ، ولكن الشيخ اعتذر لكبر سنه ، وبعث اليه بعض غزلياته مكتوبة بيده ، ولفت نظره للشاعر الأمير خسرو مبالغاً فى مدح ذكائه وفضله[2]

* * *

فى سنة ٧٨٧ هجرية هجم المغول على الهند ؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل ، ولم يكن الأمير خسرو جليس الأمراء فقط ، بل كان قائداً عسكرياً أيضاً ، فقد اشترك فى محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً فى يدهم بعد أن قتل سيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى . ذكر ذلك بكلمات مؤثرة فى رثائه الشهير لسيده ننقل بعض أبياته الى العربية ؛ قال :

« ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء ، وقامت القيامة على الأرض ، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفريق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المخربة للحديقة »

ثم وصف آلام أسره فقال :

« إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دمهم ، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار فى الأكليل . وأنا أيضاً كنت أسيراً[3] خوفاً من أنهم يريقون دمى ، لم تبق فى عروقى قطرة من الدم . وكنت أجرى كالماء هنا وهناك مع نقطات لا تمد على قدمىّ مثل الفقاقيع على سطح النهر . وكان لسانى قد جف من العطش الشديد ،

(١) تاريخ فيروز شاهى ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اسم للعملة الذهبية والفضية فى ذلك الزمن

(٣) أى من أصابه مرض اليرقان

(١) بياض عبارة عن مذكرة أو كراسة يكتب صاحبه فيه الأبيات المختارة من الشعراء المختلفين . وبياض خان شهيد كان أعطاه أبوه الامبراطور بلبن لمحافظ المحبر أمير على ومنه وصل الى الأمير خسرو

(٢) منتخب التواريخ للبدايونى

(٣) لم يذكر خسرو عن نفسه أنه كان أيضاً مربوطاً مع الأسارى الآخرين ، فربما ذلك لأنه كان قائداً فى الجيش ، ففرقوا بينه وبين الأسارى الآخرين برجاء مفاداته

ومعدتى التصقت (بظهرى) من الجوع . وهم (أخذوا تبانى) وتركونى عريان مثل الشجرة المجردة من الأوراق فى زمن الشتاء ، أو الزهرة المخموشة بالأشواك . والمغولى الذى أسرنى كان جالساً على الحصان مثل الأسد ، وكانت الرائحة الكريهة تسطع من فمه وإبطه ، وكان على ذقنه خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات . فان توانيت وراءه من الضعف كان يهددنى تارة بمقلاته وتارة برمحه ، فكنت أتنهد على تلك الحالة وأرى أن النجاة منها مستحيلة . ولكنى أشكر الله على أنى استعدت حريتى بغير أن يطعن صدرى برمح ، أو يقطع جسمى بسيف »[1]

وحكاية استعادة حريته هى أن المغولى وحاشيته وخيله كلهم نزلوا فى النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانتهز خسرو الفرصة وهرب[2] وبعد وصوله إلى دهلى كتب هذا الرثاء المؤثر الذى شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفا عند عامة الناس أيضاً

بقى خسرو بعده فى مسقط رأسه فى خدمة أمه حتى تولى الأمر معز الدين كيقباد ، وهو آخر ملوك المماليك ، فاتصل به وصنف له كتابه الشهير « قران السعدين » على طلبه ، ولم تمض مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المماليك إلى الأسرة الخلجية . فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجى الذى كان يعرف خسرو ويعترف بشعره وذكائه قبل اعتلائه العرش . فمنح خسرو لقب « الأمير » ، وعينه فى منصب أبيه برتب ألف ومائتى تنكة فى السنة . ثم رفعه الى منصب محافظ القرآن الملكى . فأصبح من أعضاء بلاط الملك ومن ندمائه . فكتب له خسرو كتابه « مفتاح الفتوح » ، وهو تاريخ غزوات جلال الدين خلجى بالشعر . نشبت حرب أهلية بين العائلة الملكية فقتل فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم تولى علاء الدين خلجى ، فاتصل به الشاعر خسرو ، وهو أطول اتصالاته بالأمراء ، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة ، وهى أيضاً مدة أكثر انتاجا فى حياة خسرو . فقد صنف فى أقل من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية منظومة وهى : (١) مطلع الأنوار ، (٢) شيرين وخسرو ، (٣) ليلى والمجنون ، (٤) آئين سكندرى (أى القانون الأسكندرى) ، (٥) هشت بهشت (أى الجنات الثمان) ، وتسمى كلها أيضاً « بنج كنج » أى « الخزائن الخمس » . ودشنها لشيخه فى الطريقة الصوفى الولى الكبير مولانا « نظام الدين أولياء » وأهداها إلى السلطان علاء الدين . وبينما كان مشغولاً بتصنيف ليلى والمجنون منها فقد أمه وأخاه فى سنة ٦٩٧ فحزن ، ورثاهما بكلمات تسيل الدموع فى مصنفه ، ننقل رثاءه لأمه الى العربية قال :

« وفى هذه السنة فقدت نورين من نجمتى وهما أمى وأخى ،
أسبوع واحد من سوء حظى فقـــدت فيه قمرين !
إن حظى كبسنى من جهتين ، والفلك بدد بى بلطمتين ،
فأصبح نوحى مزدوجاً وغمى مضاعفاً ، واحسرتاه ! أنوح على الاثنين
وا أسفاه ! ألمان لمثلى ! إن شعلة واحدة كانت تكفى لمزرعى
إن صدراً واحداً لا يتحمل ثقلين ، ولا رأساً واحداً وجعين ،
إن أمى تحت التراب ، فلا غرو أن ألوث رأسى بالتراب
يا أمى ! أين أنت ؟ لم لا ترينى محيـــاك ؟
اطلعى ضاحكة من قلب الأرض ، وارحمى بكائى المر !
إن فى كل أثر من قدمك لى تذكاراً من الجنـــة ،
إن وجودك كان حافظاً لنفسى وممينا ومتكأ لى ،
يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمرى ،
واليوم ختم على (لسانى) وسكوتك لا يزال ناصحاً

* * *

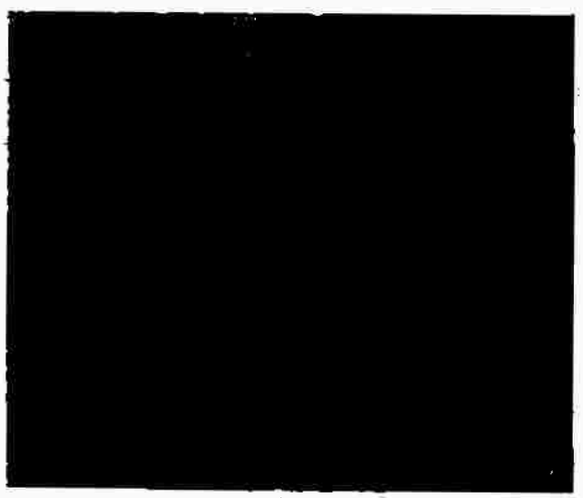

ضريح الأمير خسرو وهو من رخام أبيض ناصع يتصل به مسجد فى ضاحية من ضواحى دهلى

صنف خسرو فى عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أى الخزائن الخمس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سنبينها عند كلامنا عن مصنفاته ، وفى سنة ٧١٥ هجرية توفى علاء الدين فتولى الأمر قطب الدين خلجى فاتصل به خسرو وصنف فى عهده « نه سپهر » أى (الأفلاك التسعة) وقدمه اليه فسر السلطان منه جداً وأنعم

(١) منتخب التواريخ للبدايونى
(٢) وهذه الحكاية قد ذكرها خسرو فى مصنفه « دول رانى »